مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الحادي عشر مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويًا

1423 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 1994 ميلادية

الغرب والإسلام

الدكتورة سالمة عبدالجبار
جامعة الفاتح

إنه من واجبنا نحن الغرب بينما نسير نحو عصر العالم الواحد أن نصحح تصوراتنا الخاطئة وأن نعترف كلياً بديننا للعرب والإسلام.

مونتغمري واط في كتابه
«تأثير الإسلام على أوروبا»

ما دام الغرب يتصرف بصورة غير ديمقراطية في سياسته الخارجية تجاه الإسلام، وما دام الإسلام يشهد ذلك التحيُّز المفضوح ضده الشبيه بالعنصرية من جانب الغرب، فإن فرص قيام حوار مفتوح بين الطرفين هي فرص مظلمة حقاً».

ارسكين تشيلدرز في كتابه
(الغرب والإسلام هتك الذاكرة والخصام
1989

ما طبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام عبر التاريخ؟

لقد انتشرت في الأوساط الفكرية، وفي مراكز البحث العلمي في الغرب والشرق على السواء، تساؤلات عديدة حول مسألة هي غاية في الأهمية والوضوح، وهي حقيقة العلاقة بين الغرب والإسلام؟ ما مدى تأثير الإسلام في الحياة الأوروبية الغربية؟ وما حدود إسهام الإسلام في نشأة العلوم والمعارف في أوروبا؟ وكيف أفادت أوروبا من مجاورة المسلمين في مناطق عديدة أهمها الأندلس وصقلية على وجه التحديد.

وتلك أسئلة جد هامة، سوف نتناول الإجابة الموضوعية عنها من خلال التركيز على دور الإسلام، عموماً في رفع عربة النهوض الأوروبي في أواخر القرون الوسطى، كما جاء في العديد من الدراسات الهامة لبعض المؤلفين الغربيين أمثال «مونتغمري واط»[1] مما يسهل لنا معرفة طبيعة العلاقة بين الإسلام والغرب عبر التاريخ، ويضيف إضاءة قوية لقنوات التواصل الثقافي الإسلامي الأوروبي، ويساهم في تفنيد مزاعم الاستعلاء الثقافي التي تبرز لدى العديد من المؤرخين الأوروبيين، من خلال إغفالهم للأثر العربي الإسلامي العميق في حفز النهوض الأوروبي.

وعلى الرغم من وضوح الجانب الموضوعي في الدراسة التي قدمها واط «تأثير الإسلام على أوروبا» إلا أنه من الواجب هنا الإشارة إلى القصور الذي شاب تصور معظم المؤرخين الأوروبيين لماهية العلاقة بين الإسلام والغرب في القرون الوسطى، هذه العلاقة نشأت بفعل اقتراب الغرب من أوروبا من حملات الدعوة والفتح، ثم دخولهم الأراضي الأوروبية من جهتي الغرب والجنوب. بدأ الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا بحملات عسكرية متلاحقة بدءاً من عام 711 م أمكن لها في حدود سنة 715 م أن تسيطر على جميع المدن الإسبانية الهامة، وعلى شمال شبه الجزيرة الإيبرية وصولاً إلى «نوربون» جنوب فرنسا، وبطاقة بشرية كانت محدودة إذا قيست بالقوى التي واجهتها؛

(1) W. Montgomery Watt; The Influence OF Islam On Medieval Europe, Edinburgh, 1972, p.4

إن الحدث الأهم الذي يجب التوقف عنده هو انفصال إسبانيا العربية المسلمة «الأندلس» عن جسم الدولة الإسلامية بعد تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، وانتقال عاصمة الدولة شرقاً إلى بغداد عام 750 م. وعلى الرغم من أن شكلاً من العلاقة المعقدة ظل قائماً بين الأندلس والدولة الإسلامية، إلا أن النتيجة الأهم التي ترتبت على هذا الانفصال، هي توقف المد البشري القادم من الشرق ومن شمال أفريقيا، مما اضطر السلطة العربية الصاعدة في إسبانيا أن تجهض طموحاتها في دخول عمق الأراضي الأوروبية انطلاقاً من قاعدتها الجديدة، وهو أمر لم يكن مستحيلاً، وأجبرت بالتالي على أن تنكفىء إلى حدود الأندلس فتتخلى عن نوربون الفرنسية عام 756 م وبرشلونه عام 801 م وتتحصّن في ما بقي لها متخلية نهائياً عن مشروعها الإستراتيجي الأول.

وكما في إسبانيا كذلك في جنوب أوروبا، تمكّن العرب القادمون من تونس تحت حكم الأغالبة، من احتلال صقلية عام 827 م. ثم باليرمو 831 م ومسينا 843 م وفي عام 837 م كان العرب في نابولي وفي 847 م كانوا في باري، وتمكنوا بين عامي 846 ـ 849 من تهديد روما نفسها مرتين، دون أن تقع بين أيديهم. ودفع البابا حنّا الثامن 872 ـ 882 م الجزية للمسلمين لمدة سنتين كما يبدو[2].

هذه الحيثيات التاريخية تبدو هامة لأنها تتيح معرفة الاحتكاك الإسلامي الأوروبي وجملة العوامل الإيجابية الغنية التي وفدت إلى أوروبا عبر بوابتي الأندلس وصقلية، والتي أسهمت بقوة ـ كما يرى مونتغمري واط ـ في النهوض الأوروبي[3].

ويحدد هذا الباحث الغربي أنه إذا كان الفتح العربي لإسبانيا حدثاً مفاجئاً هابطاً من السماء بالنسبة للإسبان فإنه للمسلمين إنما كان استمراراً طبيعياً لعملية بدأت في حياة محمد. إن أهم عنصرين اشتركا في إعطاء زخم كبير لعمليات الفتح الإسلامية إنما هما: تحويل الزخم القبلي من الصراع الداخلي إلى

(2) Ibid, p.4 - 5.

(3) Ibid, p.7 - 10.

أهداف خارجية جديدة، ودعوة الجهاد أو القتال في سبيل الله. ويمثل الأمر الأول نجاحاً عملياً للرسول، الذي استطاع قبيل موته عام 632 م أن يبني دولة واسعة من القبائل، وأجزاء القبائل تمثل معظم أنحاء الجزيرة العربية، كذلك يمثل الأمر الثاني عنصراً حيوياً في المسيرة الإسلامية، فممارسة الجهاد بمقدار ما قدم من انتصارات، عزز من متانة الوحدة الإسلامية، وقاد إلى توسع مطرد على الأرض، لكن هذا لا يعني أن الإسلام دين قد فرض بالقوة، حيث يوضح مونتغمري واط في كتابه المشهور التأكيد على أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، إذ خيرت القبائل التي تعبد الأصنام بين الإسلام والسيف، كما كانت هناك معاملة مختلفة لليهود والمسيحيين والزراد شتيين والطوائف الموحدة الصغيرة الأخرى، حيث عُدَّت أديانهم أدياناً مساوية للإسلام على الرغم من القول أن شكلها آنذاك قد ذهب بنقائها. ومع ذلك فهم موحدون وبذلك عُدُّوا حلفاء[4].

لقد كان وصول الهدى العربي إلى أطراف أوروبا ذروة التوسع الإسلامي وعلى الرغم من أنه ظل ضمن حدود لم يستطع تجاوزها، إلا أنه دخل بدءاً من القرن التاسع في سياق السياسة الأوروبية، وبالتالي بات أحد عناصرها مع تأثير متفاوت بالطبع بين فترة وأخرى وبين دولة وأخرى «لم ينقطع الضغط الإسلامي عن الأمبراطورية البيزنطية أبداً وعلى الرغم من أنه لم يؤثر مباشرة في العالم المسيحي اللاتيني إلا أن الباباوات والقادة الغربيين الآخرين كانوا على بينة منه، وكان له أثره في سياساتهم في أكثر من ميدان وكان وقع العالم الإسلامي محسوساً في أوروبا من خلال إسبانيا أساساً وصقلية بنسبة أقل.

إلا أن العرب لم يحملوا إلى أوروبا جيوشاً فقط ولا حتى العامل الديني وحسب وإنما حملوا إلى ذلك مظاهر تحضر وتمدن، ومقدمات أمكن لها أن تسهم مباشرة في النهوض الأوروبي، لذلك يأخذ الباحث الغربي مونتغمري واط على بعض المؤرخين الأوروبيين، الذين لم يروا في الفتح الإسلامي إلا

---

(4) Ibid, p.10 - 11.

«غزوة بربرية» أخرى، تضاف إلى الغزوات التي اعتادها الأوروبيون، يقول في ذلك: «هناك ميل لدى المؤرخ الأوروبي لاعتبار الانتصار العربي في إسبانيا غزوة بربرية قياساً بالغزاة الألمان والسلاف والنورمنديين... ومع أنه بات معروفاً الآن أن كثيراً من النفع قد تأتى لبناء أوروبا بفعل التقاليد الاجتماعية والسياسية التي حملها «الغزاة البرابرة» المزعومون، فإن الميل لمساواة الغرب بالآخرين أمر يجب أن يبطل تماماً. لم يكن العرب لحظة الغزو أكثر ثقافة من الغزاة الآخرين، إلا أنه يبقى بين الإثنين أكثر من فارق أساسي. لقد كان الآخرون ينتمون إلى مجتمعات ذات تنظيم قبلي ولم يعرفوا تحولات المدينة وثقافتها. أما العرب فقد كانوا من ناحية ثانية ممثلي إمبراطورية كتب لها أن تحمل في خلال قرن أو اثنين أعظم ثقافة ومدنية في المنطقة الواسعة الممتدة ما بين الأطلسي وأفغانستان.

صحيح أن الإسلام الصاعد والمنتشر قد أفاد من ثقافات الشعوب التي دخلها أو التي احتك بها، لكن الإفادة هذه ما كانت لتقوم لو لم يكن للإسلام نواة كانت تحتوي على كثير من المكنونات الهائلة والفاعلية التي سمحت لها أن تتمثل في ذاتها كل العناصر الثقافية التي عرضت لها. إن أمراً يجري بهذه القوة والسرعة والسهولة يبعث الدهشة بل يكاد لا يصدق على حد تعبير «واط». حين استولى الرومان على بلاد اليونان لم يضيفوا ثقافة اليونان إلى ثقافتهم ولم يستولوا عليها بل هي التي استولت عليهم وظلت اليونانية لغة العلم، وهو ما لم يحدث للثقافة العربية مع ثقافات الشعوب الأخرى، «لقد فرضوا بدلاً من ذلك لغتهم وبعض تصورهم للكون على معظم شعوب الإمبراطورية، على الرغم من أن بعض تلك الشعوب كانت على مستوى ثقافي أعلى مما لدى العرب، وكان ذلك إلى حد ما نتاج ثقة تامة بالنفس وشعور عميق بالعزة، حيث عدَّ العرب الأقحاح أنفسهم أعلى من غيرهم، ولا شك أن شيئاً من هذا الشعور قد اتصل بالإسلام الذي رؤي أن فيه أعلى أشكال العبادة «عبادة الله» وأنقاها»[5].

---

(5) Ibid, p.65.

والمدهش أن هناك بعض المؤرخين قد سار في طريق هذه الموضوعية. اتضح هذا الموقف عند مونتغمري واط في العديد من دراساته إذ يسهب في كتابه «تأثير الإسلام في أوروبا» في قراءة الإنجازات العربية الإسلامية في جوانبها وأبعادها المتعددة الاقتصادية والعلمية والنظرية ويولي اهتماماً خاصاً بمسألة التجارة وبموقعها في الإسلام، وفي مسألتي العلم والفلسفة يستعيد السؤال الأساسي: إلى أي مدى كان العرب نقلة لما اكتشفه اليونانيون، وما مدى إسهامهم الأصيل في ذلك؟.

وفي محاولته لتشكيل إجابة موضوعية يقدم مجموعة من التجديدات والإنجازات التي أبدعها العرب أو أحسنوا توظيفها، والتي انتقلت إلى الثقافة الأوروبية. ويؤكد في هذا الإطار مسألة إتقان العرب لاستخدام الصفر، الذي ربما وجد عند الهنود، إلا أنه لم يستخدم بهذا الإتقان إلا مع العرب، وفي إطار الرياضيات نقف عند الخوارزمي الذي يعرف في الأدبيات اللاتينية بـ Algorismus وكانت له ترجمات وتآليف في الفلك والجغرافيا والرياضيات، وله شهرته الواسعة في وضعه أسس علم الجبر.

وكما في الرياضيات كذلك في الطب حيث أفاد العرب في بداية عهدهم بالفتح من التراث المشرقي القائم في العراق وبلاد الشام وخاصة في جنديسابور حيث مدرستها الطبية المشهورة.

«وقد ثمن العرب بوضوح أهمية المضمون العلمي الوضعي في الطب فبذلوا فيه جهداً نظرياً وعملياً، بلغ ذروته في تأسيسهم أول مستشفى في بغداد عام 800 م بأجنحة متخصصة مختلفة، ولن ندرك قيمة هذه الإنجازات إلا في إطار مقارنتها بمسوى الطب في أوروبا آنذاك، حيث كانت الأمراض ترد إلى الشيطان الساكن في الأجساد»[6].

ومع ترجمة أعمال جالينوس، وأبقراط الطبية إلى العربية مباشرة فقد الأطباء الأوائل أطباء جنديسابور احتكارهم للطب، وبلغ مسلمون عديدون

---

(6) Ibid, p.37.

مستوى فاقوا به أساتذتهم النسطوريين، وكانوا إلى حد ما في مستوى أعظم من أساتذة اليونان»[7].

وعلى الرغم من أن الحاجة الطبيعية ألزمت المسلمين أن يبدأوا بالفلك والطب، إلا أن شهرة المسلمين الأوسع إنما تنسب إلى ما تركوه في ميدان الفلسفة. لقد انتجت الفلسفة العربية اثنين يمكن عَدُّهما بين أهم فلاسفة العالم: الفارابي، وابن سينا. كما أنّ ابن رشد في المغرب على الرغم من أنه لم يضع نظاماً خاصاً أو تصوراً خاصاً للكون كان أولاً وأخيراً شارحاً لأرسطو.

ويخلص «واط» من استقرائه لتاريخ العلم والثقافة عند العرب إلى تعميم على درجة كبيرة من الوضوح والأهمية إذ يقول: «حين يصبح الإنسان على بينة من كامل التجربة العربية والتفكير العربي فإن المرء يقول إنه لولا العرب لما كان لعلم أوروبا ولفلسفتها أن يتطورا، في اللحظة التي تطورا فيها. لم يكن العرب نقلة للفكر اليوناني فحسب وإنما حملة أصليون. وحين أصبحت أوروبا مهتمة بالعلم والفلسفة كان عليها أن تتعلم كل ما يمكن من العرب قبل أن تتمكن من تحقيق خطوات إلى الأمام»[8].

ويخلص هذا الباحث في دراسته التاريخية ـ التي نالت اهتماماً واسعاً، وتعرضت للنقد والتحليل، إلى دراسة الآثار التي تركها وصول العرب إلى إسبانيا وصقلية في الوضع الأوروبي الغربي آنذاك، كما يعلل جملة الاستجابات الأوروبية للمد العربي الإسلامي الذي كان يطرق أبواب قلب القارة. حيث كانت أوروبا لحظة وصول العرب إلى إسبانيا في القرن الثامن، ومن ثمة إلى صقلية وجنوب إيطاليا، ترقد عميقاً فيما شاعت تسميته بـ «ظلام القرون الوسطى»، وكانت القارة تسكن تحت سلطة أسياد الأرض من جهة، وسلطة الآباء الروحية من جهة ثانية. لقد صمم العالم كما أراد الآباء، ولم يكن هناك من داع للالتفات إلى الأرض لا علماً ولا ثقافة ولا سياسة، لأن العالم الحقيقي هو في السماء وليس على الأرض هو وحده يستحق العناية

---

(7) Ibid, p.34.

(8) Ibid, p.58.

والجهد. وكذلك كان وصول العرب إلى أوروبا عاصفة هزت البنى الثابتة وبعثت الحياة في ذلك السّبات. وإذا كان وصول الإسلام إلى الغرب قد أحدث شرخاً كبيراً وأنزل هزيمة واضحة بالعالم الأوروبي الديني والسياسي، فإن ذلك استحال عاملاً إيجابياً بالغ القيمة في دفع عملية النهضة الأوروبية، وكان تحدياً مباشراً على جميع المستويات الدينية والسياسية والقومية والعسكرية والثقافية والحضارية عموماً، وكان طبيعياً أن يستثير ذلك التحدي ردات فعل أوروبية مقابلة في مختلف الميادين تلك، كانت أولى ردات الفعل كما يقول مونتغمري واط «على الصعيد العسكري وأخذت ردود الفعل شعار استعادة إسبانيا من جهة، والحركة الصليبية في غرب أوروبا عموماً».

وعلى الرغم من ذلك لا بد من القول إنّ الحركة الصليبية كانت مظهراً للتململ الأوروبي الذي بعثه المد الإسلامي. وبمعزل عن التقويم الحقيقي للحركة الصليبية فمن الأهمية بمكان أن نضيف أن العرب لم يقدموا إلى أوروبا مشاعر الصحوة والنهوض، وإنما أمدوا تلك المشاعر بأدوات النهضة وعدتها من خلال ما نقلوه وحملوه عبر بوابتي إسبانيا وصقلية واللتين كانتا تماساً حضارياً تجاوز كثيراً من الجوانب العنصرية أو الدينية.

يرى مونتغمري واط أن موقف أوروبا من العرب والإسلام قد حكمه عاملان متناقضان: الخوف العميق من جهة، والإعجاب من جهة ثانية. وحين زال ذلك الخوف مع استعادة طليطلة «الإسبانية» عام 1085 م، وسقوط القدس عام 1599 لم يبق إلا تكريس الانتباه لما أثار إعجابهم من التراث العقلاني للعرب»[9].

وعلى هذا الأساس بدأ التحصيل الأوروبي المباشر وغير المباشر لعلوم العرب ولثقافتهم، وبدأت حركة النقل والترجمة عن العربية إلى اللاتينية. وعلى الرغم من أن عصر الترجمات الكبرى لم يبدأ إلا في القرن الثاني عشر إلا نقلاً لأشياء محددة كان قد بدأ في القرن التاسع على أيدي أسماء معروفة في هذا المجال.

---

(9) Ibid, p.82.

وقد بدت تلك الإنجازات شرطاً للشعور الأوروبي بضرورة النهوض والتقدم والأخذ بأسبابهما إلا أنها تحولت ومن زاوية أكثر شمولاً إلى مهماز بالغ الحدة، دفع الأوروبي إلى لحظة صحوة، ووعي بالذات والهوية لقد أذهلت انتصارات العرب أوروبا، وتحول الإسلام هاجساً حرك المياه الراكدة منذ زمن. يقول واط لقد واجه الغرب الإسلام بشعور من النقص والضعف؛ كانت التقنية الإسلامية متفوقة في أكثر من ميدان، وكان التفوق العسكري بادياً، كان شعور الغرب عموماً شبيهاً بمشاعر طبقة مستضعفة، فقد تحولوا إلى الدين في محاولة لتأكيد هويتهم في وجه الجماعة المسيطرة»[10].

كان الدينُ هو الملاذ الوحيد الممكن للأوروبيين المحرومين من أي بديل آخر لذلك لاقت الصليبية الصاعدة هوى في النفوس.

ويخلص واط في دراسته تلك إلى التأكيد على أن قراءة وقائع المواجهة بين العالم الغربي «المسيحي» والإسلامي توضح لنا أن أثر الإسلام في الغرب الأوروبي هو أكبر بكثير مما اعتدنا تقييمه فالإسلام لم يشارك أوروبا الغربية كثيراً في الإنجازات والاكتشافات فحسب، ولم يحفز العقل الأوروبي للعلم والفلسفة فقط، وإنما استثار في أوروبا شعوراً بالذات، لأن أوروبا كانت تقاتل الإسلام حيث بالغت في اعتمادها على التراث اليوناني والروماني على حساب التراث العربي.

ويختم مؤلفه الشهير بالعبارة اللاتينية «إنه من واجبنا نحن الأوروبيين الغربيين بينما نسير نحو عصر العالم الواحد أن نصحح تصوراتنا الخاطئة وأن نعترف كلياً بدَيْنِنا للعالم العربي والإسلامي»[11].

ذلك ما عرضه لنا مونتغمري واط حول طبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام من آفاقها التاريخية، عبر مرحلة هامة في التاريخ الإنساني، اتسمت تلك النظرة بالموضوعية والتحليل الدقيق على غير عادة الأبحاث والدراسات الغربية.

---

(10) Ibid, p.84.

(11) ارسكين تشيلدرز «الغرب والإسلام هتك الذاكرة والخصام».

وفي هذا السياق نعرض لنموذج آخر من هذه الدراسات التي اهتمت برصد العلاقة بين الغرب والإسلام في إطار من التحليل الدقيق، جاء ذلك في شهادة المؤلف البريطاني «أرسكين تشيلدرز» في كتابه «**الغرب والإسلام ـ هتك الذاكرة والخصام**» حيث انطلق الباحث من حقيقة أن الغرب لم يحاول فهم الإسلام في أي وقت من الأوقات، لكنه ظل دائماً رافضاً ومعادياً له، ولذلك فإن صورته ظلت مشوهة بصورة مطلقة في الوجدان العام، وما يحدث الآن من تحيز غربي ضد الإسلام، والحديث المعلن عن «العدو الجديد»، والتخطيط الإستراتيجي لتصدير الأصولية وصناعتها وفق الرؤية الغربية، ذلك كله لا يمثل موقفاً جديداً بقدر ما هو إعلان عن حقيقة الكامن والمخبوء في الوعي الاجتماعي للعالم الغربي.

وطيلة فترة تزيد على 1200 سنة، ظل الإسلام يشوه من خلال معلومات وانطباعات إمّا منقوصة أو مكذوبة، حتى تحولت تلك الصورة المغشوشة بمضي الوقت إلى مسلمات مستقرة في الأعماق الغربية، وظلت هذه المسلمات حاكمة لعلاقة الغرب بالإسلام حتى هذه اللحظة؛ هكذا قال تشيلدرز ثم أضاف: «إن المسيحيين لم يتم تقطيعهم إرباً بالسيف، عندما كان العرب يشقون طريقهم عبر المتوسط لكنهم كانوا يمارسون شعائرهم بكل احترام. وفي القدس عقد المسلمون معاهدة مع أعيانها من المسيحيين واليهود، ضمنت لهم حريتهم، ولم يكن عليهم سوى أن يدفعوا الجزية للسلطة الإسلامية التي وفرت لهم الأمان والرعاية، وعلى النقيض من ذلك، فعندما وصل الصليبيون في عام 1599 دخلوا القدس بالخداع وأغرقوها في حمام الدم، وذبحوا المسلمين فيها، وفي مفارقة درامية في التاريخ لا تزال أصداؤها تتردد عبر القرون، وإن لم تعرف على نطاق واسع في الغرب، فإن الصليبيين أحرقوا يهود القدس أحياء في معبدهم، في حين تمَّ الإبقاء على مختلف الأماكن المقدسة للمسيحيين واليهود بدون أن يمسها سوء خلال الحكم العربي الإسلامي كله. وينبغي أن يلاحظ الآن أنه في أسوأ لحظات الغضب بين المسلمين تجاه الغرب لم يتم سب الدين المسيحي أو اليهودي».

إن الصورة التي رسمت للإسلام في الغرب المسيحي بدورها كانت

موغلة في الرفض والعداء، ففي فترة مبكرة جداً، ترجع إلى القرن الثامن، أعلنت الكنيسة الغربية أن الإسلام هرطقة إنشقاقية، وبحلول عام 778 م كان العداء اللاهوتي آخذاً في الإنتشار. منذ ذلك الحين ظلت صورة الإسلام في اللاهوت، وفي الأدب الغربي، وفي السياسة الخارجية للكنيسة المسيحية، هي صورة العدوان الغادر على الإيمان الحقيقي، وظلت صورة المسلمين هي صورة المخادعين المنحرفين، الذين لا يعدون من البشر عملياً، ولا يستحقون أي رحمة، وليس لهم إلا السيف. وقد لاحظ الرحالة والمؤرخ العربي ابن جبير، الذي رحل إلى إسبانيا عبر فلسطين التي احتلها الصليبيون في القرن الحادي عشر الميلادي «العبارات المثيرة للاشمئزاز التي تطلق على النبي الكريم، أما دانتي فقد أفرد لنبي الإسلام مكاناً خاصاً من العذاب الجسدي الأبدي بصورة مثيرة وفجة. حيث صنفه عليه السلام من الدائرة الثامنة من الجحيم وهي ثاني أسوأ مكان مخصص للأشرار!!.

طيلة القرون السابقة سادت النغمة الشرسة عن الإسلام وأتباعه في مختلف الكتابات الغربية، حيث أضبح المسلمون هم الشياطين النمطيين في المعرفة التقليدية الغربية. وفي أواخر القرن التاسع عشر حاول كاتب أمريكي أن يسخر من الانطباعات الشعبية الشائعة، فزعم أنه شاهد في رحلته إلى القدس سيف الصليبي «جودفري» من بولونيا: «وجربته في مسلم حيث شققته نصفين مثل الكعكة».

«وهكذا استمرت صورة الإسلام في مجمل الخطاب الغربي بأنه لعنة العالم ونتاج لسلسلة من الخداع والانتقام وإطلاق العنان للشهوات، بدأت مع النبي «محمد» كما يقول تشيلدرز وأصابت بالعدوى كل المسلمين».

واستقر ذلك الإنطباع وتجذّر في الماضي والحاضر ليس فقط في عموم وجدان الناس، ولكن أيضاً في داخل الدوائر الأكاديمية في القرن العشرين. ففي الدراسات الغربية المعاصرة للثقافات الأخرى، نرى أنّ أغلبية الباحثين ركزوا على التفاعل بين الهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية، وغيرها من ملل غير المؤمنين بوجود إله واحد، بينما عنيت قلة قليلة بالإسلام، كما عمدت

نسبة كبيرة من الباحثين في المجال الأحدث لدراسة التفاعل الثقافي بين الغرب والشرق إلى تجاهل الإسلام عملياً.

وفي تناول لموضوع هتك الذاكرة الذي رصد فيه الجهد الغربي لإلغاء الدور الثقافي والمعرفي الذي قام به عالم الإسلام في مسيرة التجربة الإنسانية، استهل مؤلف كتاب «الغرب والإسلام» حديثه بعبارة قالها الباحث أدوارد جوري، في ندوة عقدتها جامعة برنستون الأمريكية، حول التفكير العلمي العربي قرر فيها ما نصه: إن العصور الوسطى عُدَّت مظلمة فقط لأن إنجازاتها العظيمة حققها الشرقيون (المسلمون). وذلك لا ينبغي أن يكون عذراً للإنتقاص من قيمتها. والحكم غير المتحيز الذي يقضي به التاريخ يدفعنا إلى الاعتراف بأنه منذ النصف الثاني من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر كانت العربية هي لغة العلم للجنس البشري.

في هذا الفصل تحدث تشيلدرز عما وصفه «بالتناقض الأضخم» فقد ظل المسلمون المتعلمون يعرفون الكثير عن الغرب، ويحترمون بصورة كاملة إنجازاته العلمية والتقنية، كما حرص المجتهدون والمفكرون المسلمون على إحداث التوافق بين الإسلام والعلم الحديث، غير أن الطرف الغربي على الرغم مما هو متوافر له من قدرة مشهودة على تقييم المعرفة والمعلومات العالمية، ظل يواجه عالم الإسلام بمشاعر سلبية للغاية. فوجهة النظر الغربية عن الإسلام حتى أواخر القرن العشرين ظلت تتشكل منطلقة من الخوف والعداء والأحكام المسبقة، ولم تتضمن عملياً أي اعتراف بميراث الإسلام الثقافي الذي نقله الغرب، الأمر الذي أوقع الغربيين في حالة من «فقدان الذاكرة الجماعي».

وبعدما استعرض تشيلدرز نماذج مما حققه العرب والمسلمون من إنجازات ضخمة في مجال العلوم، انتهى إلى أنه «في كل علم أساس وحرفة مما استخدمه الغرب لتحقيق تقدمه نجد العديد من الأدلة التي تثبت أن هناك ميراثاً من العالم الثالث، عندما كان حقاً هو العالم الأول، وقد انتقل ذلك الميراث إلى الغرب عن طريق العرب وفي ظل الإسلام».

«ومع ذلك ففي التاريخ الرسمي الغربي، والتعليم والإعلام الغربيين

هناك تجاهل تام وصمت مطبق عن تلك الحقيقة، ففي منتصف القرن 19 م أفردت دائرة المعارف البريطانية للراهبة الساكسونية «هورسفيثا» Hoursfith ضعف المساحة التي خصصتها للخليفة الأندلسي عبد الرحمن الثالث، الذي أصبحت قرطبة في عهده أكبر المدن الثقافية في أوروبا، والتي وصفتها هورسفيثا ذاتها بأنها جوهرة العالم، كما أن تاريخ العصور الوسطى لكامبردج الذي يضم 5000 صفحة لم يخصص للحضارة العربية في إسبانيا سوى 50 صفحة فقط، وخصص المؤلف الأمريكي جيمس هارفي روبنسون، وهو صاحب الكتاب الدراسي النمطي لعدة عقود، الذي يتناول العصور الوسطى والحديثة 10 صفحات للإسلام فحسب، مما يزيد على 800 صفحة، وأنتج كينيث كلارك وهيئة الإذاعة البريطانية 1969 سلسلة تلفزيونية كاملة وكتاباً عن الحضارة دون أن يلاحظا شيئاً من ذلك فيما وراء الغرب. وحتى هذا الوقت فإن بضع باحثين ومعلقين فحسب اعترفوا بالدور الثقافي الذي أوردناه ـ والكلام لمؤلف الكتاب تشيلدرز ـ بطريقة غير كافية وموجزة، ناهيك عن المثال المذهل لفقدان الذاكرة الذي يتضمنه إغفال هذا الدور في الوعي الغربي».

وعلى صعيد آخر فقد ترجمت كل أسماء العلماء العرب الكبار إلى اللغة اللاتينية، دون أية إشارة إلى الهوية الحقيقية لأصحابها، وتكرس ذلك الانتحال الثقافي الهائل، لأن تعلم اللغة العربية كان مكروهاً في مختلف أنحاء العالم، سجل ذلك أكاديمي هولندي في القرن 18، مشيراً إلى أن «الكثير يقولون إنها لغة لا تستحق عناء الجهد والمشقة من أجل الإطلاع على أحلام وأوهام المتهوسين فحسب» علق المؤلف الإنجليزي تشيلدرز على تلك الصورة قائلاً:

«إن القادة الغربيين الدينيين والسياسيين، على حد سواء، أرادوا أن يغيبوا عن الوعي العام أي شيء إيجابي حول الإسلام، ومن ثم فقد تمت تربية أجيال بعد أجيال على تناسي دوره، وجرى تطويعهم، عن طريق وسائل الإعلام، للاقتناع بأنه لم يأت شيء له قيمة من عالم الإسلام والعرب فيما عدا البنادق والجمال والحريم والتطرف والأسواق الشرقية وعدم الثقة والانحراف والطغيان».

في الكتاب رصد آخر مهم للغاية للأساليب التي اتبعها الغرب، لتدمير العالم الإسلامي، ولاحتلاله عسكرياً قطراً بعد قطر، ثم لفرض ثقافته على الواقع العربي الإسلامي، سواء من خلال القسر من خلال المرحلة الاستعمارية، أو من خلال «النخبة الوطنية» التي تعلمت في الغرب واستلهمت نموذجه وعادت كاملة الولاء له. من هذا السياق أثبتت شهادة لافتة للنظر قال فيها: يسجل الواقع المؤسف أن الحكومات الغربية قد تحركت المرة تلو الأخرى لزعزعة استقرار أي حركة سياسية نابعة من الداخل في العالم الثالث، وبصفة خاصة أي قيادة إسلامية قوية وواعدة لا تدين بالولاء للغرب، فقد استخدمت وكالات مخابراتها والنظم العميلة المحلية لتسليح وتمويل الجماعات المتطرفة، ليس بهدف الدفاع عن الدين وحقوق الإنسان، وإنما لتحقيق السياسات الواقعية الإمبراطورية، وأقامت الحكومات الغربية أو مولت وسلحت أسوأ الدكتاتوريات في العالم الثالث منذ تصفية الاستعمار، إذا ما وجدت فرصة لذلك.

خلص تشيلدرز في دراسته عن الغرب والإسلام إلى أنه ما دامت الدول الغربية تتصرف بصورة غير ديمقراطية بهذا العمق في سياستها الخارجية تجاه العالم الإسلامي، وما دام المسلمون يشهدون ذلك التحيز المفضوح ضدهم، الشبيه بالعنصري من جانب الغرب، فإن فرص قيام حوار مفتوح بين الطرفين هي فرص مظلمة حقاً.

هذا الرأي الذي يعرضه تشيلدرز، إنما يقدم الدلالة الواضحة على أن حملة التضليل كان الإسلام هدفها وضحيتها في التجربة الغربية، هذه التجربة تسعى إلى تثبيت الصورة المظلمة عن الإسلام في الوجدان البشري عامة. ولا نبالغ إن قلنا إن ثمة ثقافة جديدة يروج لها الآن، تشوه الإسلام نظراً لكونه مشروعاً حضارياً، وتسعى إلى تلويث تجربته ورموزه وتاريخه، ليس في الوجدان الغربي فقط وإنما تحاول أن تصل إلى الذات المسلمة، لتلويث الوجدان الإسلامي وتنفيره من كل ما هو إسلامي.